الشيخ محمد عياد الطنطاوى
أول أستاذ عربى فى روسيا
ورائد من رواد الدراسات فى اللغة العامية المصرية
للدكتور جريجورى شربانوف

أسهم الشيخ محمد عياد الطنطاوى (١٨١٠ - ١٨٦١) بقسط ملموس فى علم اللغة العربية وخاصة فى دراسة اللغة العامية المصرية ، وكذلك فى الأدب العربى الكلاسيكى والحديث ، بكونه شيخا فى الأزهر فى الثلاثينيات وأستاذا للغة العربية فى مدرسة الألسن والجامعة ببتربورغ عاصمة روسيا فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى ، إذ ألف كثيرا من المؤلفات القيمة فى جميع المجالات المذكورة ، وترك تراثا مرموقا فيها ، نال تقديرا عاليا فى وقته ، ويستحق الذكر والإحياء والاهتمام من قبل الأوساط العلمية المصرية والسوفييتية فى أيامنا هذه .

وفى هذا البحث نحاول أن نلقى ضوءا على مجال واحد من أعمال الشيخ الطنطاوى وهو اهتمامه بدراسة اللغة العامية المصرية والفولكلور المصرى ، بصفته رائدا من الرواد فى هذا الحقل الحديث من حقول علم اللغة فى العهد الجديد ولكننا نرى من الضرورى أن نقدم بادئ ذى بدء عرضا شاملا لمعالم حياته الطريفة وتحف آثاره المحببة من مخطوط ومطبوع .

اسم الشيخ الكامل . محمد سعد بن سليمان عياد المرحومى الطنطاوى الشافعى . وأضيف إليه أحيانا . الأحمدى الأزهرى . ولد فى سنة ١٢٢٥هـ—١٨١٠م فى قرية نجريد بالقرب من طنطا ، تعلم فى مدارس طنطا ثم فى الأزهر وكان هناك شيخا يعلم تلاميذه فقه اللغه والأدب وعقائد الدين وفى سنة ١٨٤٠ انتقل إلى مدينة بتربورغ (لينينغراد حاليا) التى كانت عاصمة روسيا آنذاك ، حيث بدأ دروسه فى اللغة العربية الفصحى والعامية المصريه وتاريخ الأدب العربى ، فى مدرسة الألسن التابعه لوزارة الخارجية ، ثم فى جامعة بتربورغ . وعين فيها فى منصب أستاذ قسم اللغة العربية فى سنة ١٨٤٧ وتوفى فى عام ١٨٦١ ودفن فى مقبرة فولكو وسكويه بصواحى بتربورغ (لينينغراد) .

صوره الشيخ محمد عياد الطنطاوى

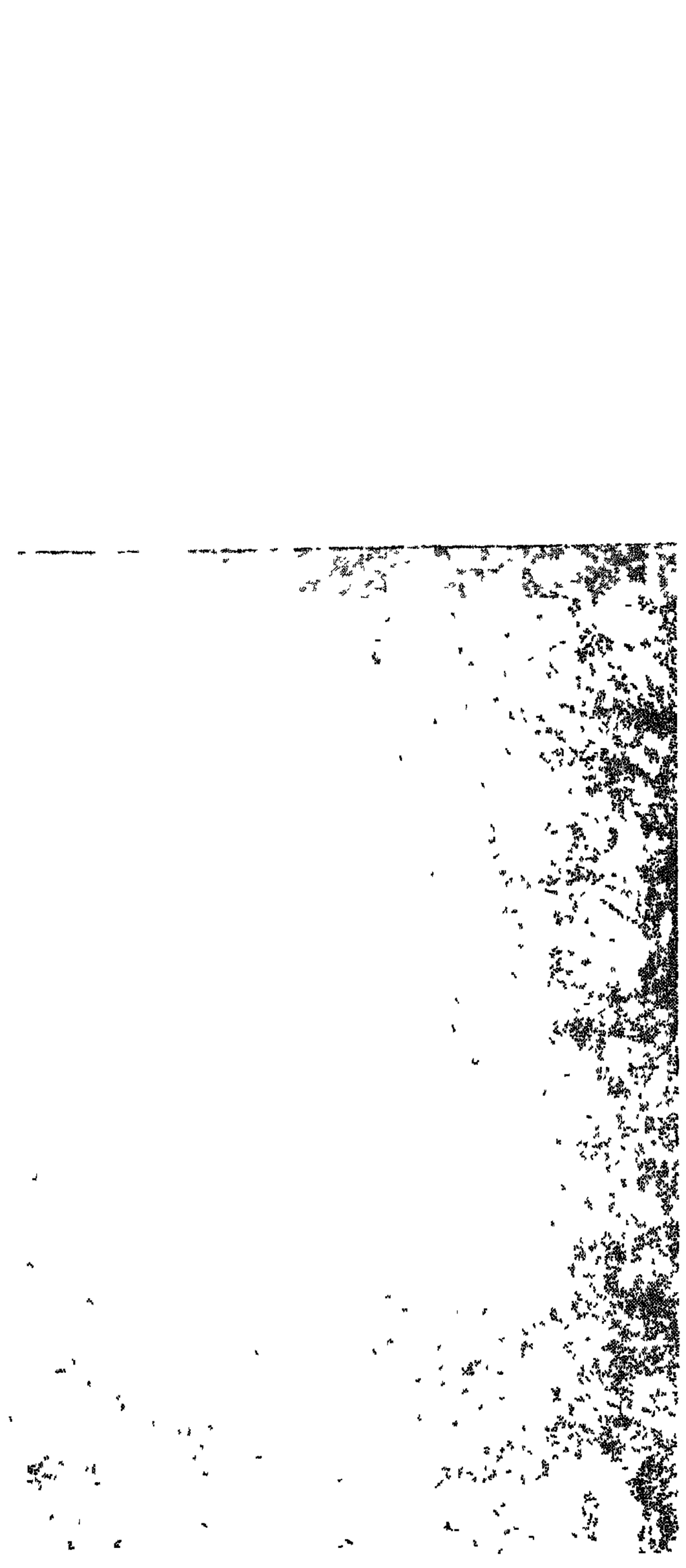

قبر الشيخ الطنطاوى فى ايسنغراد

وكان الشيخ الطنطاوى من أبرز الشخصيات فى عصره ، تلقى علومه على يد أساتذته علماء الأزهر . إبراهيم الباجورى (١٧٨٣–١٨٦١) ، وحسن العطار (١٧٦٦–١٨٣٤) وإبراهيم السقاء (١٧٩٧–١٨٨٠) وعاش فى عهد النهضة الأدبية ، ويبدو من مراسلاته وترجمة حياته أنه كانت العلاقات الطيبة تربط بينه وبين خلياه رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ – ١٨٧٣) أحد أساطين النهضة وصديقه إبراهيم الدسوقى (١٨١١–١٨٨٣) معلم المستشرق الإنجليزى المشهور إدوارد لين صاحب القاموس العربى الإنجليزى الكبير.

وكان للشيخ الطنطاوى تلاميذ كثيرون فى الأزهر وكذلك عدد كبير من تلامذته المستشرقين الأجانب استفادوا من سعة اطلاعه الثقافية واستشاروه (فى مصر وروسيا) فى قضايا تاريخ الأدب العربى ونصوصه وخصائص اللغة العربية . ونذكر منهم العلامة الرحالة غ ڤالين (١٨١١–١٨٥٢) من فنلندا ومواطنه آ تشيلعرين (١٨٢٢ – ١٨٥٦) ، ف . فريتيل (١٧٩٥ ١٨٥٥) وآ بيرون (توفى فى ١٨٧٦) من فرنسا ، وغ هيبل (١٨٠٨ – ١٨٨٩) من ألمانيا ، والدبلوماسيين والمستشرقين الروسيين فى القاهرة ن موخين (ولد فى ١٨١٠) ور . فرين (ولد فى ١٨١٢) الخ . وكانوا جميعا يحترمونه احتراما عميقا ويعترون بصداقته معهم ، وأشادوا باسمه فى رسائلهم ومؤلفاتهم . وقال فرينيل عن الطنطاوى « إنه فى الوقت الحاضر شيخ مصرى وحيد يدرس بشغف وانتباه لغته الأصلية والآثار القديمة للأدب العربى » كما سماه ليين : « أول عالم ڤيلولوجى فى أول مدرسة عربية فى أيامنا ». أما فالين وتشيلعرين فتركا ذكرياتهما المؤثرة عن أستاذهما المحبوب ، ورسما صورته الحذاقة بألوان رقيقة دافئة وأثناء دراسة المخطوطات والمسكوكات والنقود العربية القديمة توجه خ فرين (١٧٨٢ – ١٨٥١) عميد المستشرقين الروس فى ذلك الحين إلى زميله المصرى وقبل شروحه وتعاليقه النفيسة بامتنان وأشار فى مؤلفاته إلى أن الشيخ الطنطاوى ثقة هامة فى هذا المضمار

واسم الشيخ الطنطاوى معروف فى الهيئات العلمية والثقافية فى وطنه مصر وروسيا وأوربا الغربية ونشرت عدة مقالات إخبارية عنه وفى مقدمتها مقالة أحمد تيمور فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (١٩٢٤)[1] وفى سنة ١٩٢٩ صدر فى لينينغراد كتاب مفصل واف عن الشيخ الطنطاوى ألفه المحاثة إغناطيوس كراتشكوفسكى مؤسس مدرسة الاستعرابيات السوفيتى[2] كان يجمع مواد كتابه

---

(١) المجلد الرابع من المجلة لسنة ١٩٢٤ ص ٣٨٧ – ٣٩١

(٢) إ ى كراتشكوفسكى الشيخ الطنطاوى ، أستاذ جامعة سان – بترسبورغ ، لينينغراد ، ١٩٢٩ (باللغة الروسية) ، أعيد طبع الكتاب فى المجلد الخامس من المؤلفات المختارة لكراتشكوفسكى ، موسكو – لينينغراد ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢٩ – ٢٩٩

خلال خمس عشرة سنة ، ويشمل الكتاب سيرة الشيخ الطهطاوى ، ويصف جميع مؤلفاته المعروفة ويقدم بعض النماذج والمقتطفات من مخطوطاته وأبرز كراتشكوفسكى قيمة الآثار الطهطاوية الأدبية والتعليمية ودوره الكبير فى تاريخ التعليم المصرى والروسى وجدير بالذكر أن كراتشكوفسكى الذى ألف ما يقرب من خمسمئة كتاب ومقالة على مدى أربعين سنة من البحوث العلمية قد اعترف بأن كتابه عن الشيخ الطهطاوى كان أحب بحوثه إليه[1] .

توجد فى مكتبة لينينغراد مجموعة المخطوطات الشرقية وأكثريتها باللغة العربية ويبلغ عددها مئة وخمسين مخطوطة من تراث الشيخ الطهطاوى بعضها من تأليفه والجزء الآخر يتألف من مخطوطات ليست بقلمه ، جمعها العالم المصرى أو نسخها فى فترات مختلفة من حياته وهى غير عريقة فى القدم ، ولكن بعض المخطوطات فريدة ، ولضيق المكان نذكر هنا بعضا منها : النسخة الأصلية الأولانية لأهم آثاره الأدبية تحت العنوان : « تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا » (فى ١١٢ ورقة) وتحفظ النسخة الثانية المبيّضة لنفس الأثر فى إستانبول فى مسجد رضا باشا فى رميلى خصار (فى ١٩٣ ورقة) كتب الطهطاوى أثره هذا قبيل سنة ١٨٥٠ ، ويتحدث فيه عن رحلته من القاهرة إلى روسيا وتاريخ روسيا ، وعن عادات الروس وتقاليدهم ، والحياة الثقافية فى بلادهم وتعتبر « تحفة الأذكياء » من أروع دواكير الأدب العربى الحديث ذات الأهمية الثقافية والتاريخية ، شأنها شأن كتاب وصف عاصمة فرنسا بقلم الشيخ رفاعة الطهطاوى[2] ومع الأسف الشديد لم تحقق « تحفة الأذكياء » حتى الآن ولم تطبع مع أن هذا الأثر الأدبى الغنى بالوقائع الظريفة ، يستحق البحث والإصدار كما أكد ذلك المستشرق الكبير من الجيل الأقدم آغافانغل كريمسكى (١٨٧١ ١٩٤٢) فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى الحديث[3] .

ولكى تكون الفكرة كاملة عن قيمة مجموعة المخطوطات الموروثة عن الشيخ الطهطاوى نشير إلى نسخة يتيمة أخرى وهى مخطوطة قاموس اللغة العامية المصرية « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » ليوسف المغربى (المتوفى سنة ١٠١٩هـ — ١٦١١م) وأثبت كراتشكوفسكى أهميتها العلمية

---

(١) إ ى كراتشكوفسكى المؤلفات المختارة ، المجلد الأول ، ص ٩٨

(٢) رفاعة الطهطاوى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، بولاق ، ١٢٥٠ هـ

(٣) آ ى كريمسكى . تاريخ الأدب العربى الحديث القرن التاسع عشر — بداية القرن العشرين ، موسكو ، ١٩٧١ ، ٧٩٤ ص (باللغة الروسية) ، خص العالم السوفيتى فيه شخصية الشيخ الطهطاوى بباب مستقل أورد فيه بعض تفاصيل مضمون « تحفة الأذكياء » (ص . ١٧١ — ١٨٥)

(١٩٣٤) وقام العالم المصرى عبد السلام عواد بتحقيقها ونشر صورتها الفوتوغرافية فى سنه ١٩٦٨ لقد أسعدنى الحظ أن أقدم بحثا عن خصائص المخطوطه اللغويه فى ندوة ألفيه القاهرة فى ١٩٦٩ :

أما اهتمامات الشيخ الطنطاوى اللغويه فكانت متباينة وعديدة كريب الأزهر وشيخه . كان الطنطاوى مثل معاصريه من العلماء العرب تقليديا فى منهجه وتأليفه اتبع علم اللغة التقليدى الذى يعود إلى كتاب سيبويه وآثار النحاة فى القرون الوسطى وهذا ما يختص باللغة العربية الفصحى . ومن جهة أخرى فى نتيجة اتصالاته بالعلماء المستشرقين من أوربا الغربية وروسيا ازداد اهتمامه بالدراسة المقارنة القديمة للنصوص الأدبية وسعيه إلى تحليل قواعد اللغة العامية والمنهج الأخير متعلق كذلك بحاجات تدريس لغة المخاطبة فى روسيا

كانت المرحلة الأولى لدراسات الطنطاوى اللغويه مرتبطة بزمن إقامته فى مصر . كما كتب فى إحدى رسائله : قد ألف كتاب النحو وتركه عند تلاميذه فى الأزهر . ونجد فى جامعة لينينغراد ثلاثة من أعماله اللغوية التقليدية فى مخطوطات جاء بها من القاهرة وهى

١ — نظم تصريف الزنجانى

٢ — ختم على شرح القطر لابن هشام .

٣ — تقييدات على شرح الأزهرية.

أما فترة تعليمه ودراساته فى بطرسبورغ فقد توجت بصدور كتابه الشهير عن اللغه العامية المصريه ، وعنوانه بالعربية « أحسن المخب فى معرفة لسان العرب » وبالفرنسيه

Traité de la langue arabe vulgaire (1848)

وكان الكتاب فى عهده ظاهرة جديدة فريدة إذ كانت دراسات اللهجات فى العرب فى مرحله نشأتها . ولم ينفتح بابها فى العالم العربى بعد واعتبره العلماء خطوة كبيرة إلى الأمام فى الدراسات اللغوية وعلم اللهجات وأشاروا إلى قيمه مصادره وموادة التى أوردها وحللها العالم العربى وقد لجأت إلى الكتاب واستفاد منه أجيال عديده من العلماء

وهذا الأثر النفيس لم يفقد أهميته العلمية حتى اليوم . فرى من الضرورى أن نعرض بعض النماذج من الكتاب لنثبت قيمته لعصره ولعصرنا أيضا . وبغرض إبراز خصائص منهج المؤلف

يقع الكتاب فى ٢٥٦ صفحه

ويتضمن بابا خاصا (٢٥ صفحة) يشرح فيه القواعد الصوتيه والنحوية واللفظيه ، وفى باب آخر (١٠٠ صفحه) تقدم بأمثلة كثيرة ، جمل وتراكيب ، لشرح تكوين واستعمال أجزاء الكلام فى اللغه العامية ثم يأتى باب التعابير والتحيات الشعبيه المستعملة فى مناسبات مختلفه (الأعياد ، بعد

أداء الصلاة ، أثناء الأكل والشرب الخ) يعرف القارىء كذلك عددا كبيرا فى تنادح المولكلور المصرى الأمثال (الصفحات ١—١٣٣) وادر وأحار وألغاز (الصفحات ٢٢٦ — ٢٣١) أدرج المؤلف فى كتابه المواويل (الصفحات ١٧٦—٢٢٦) وأكثريتها من تأليفه كما نشر فى أثره عديدا من المراسلات (الصفحات ١٣٣ — ١٧٠) .

وفى قسم الأصوات مثلا يشرح المؤلف طريقة لفظها العامى وكيف يختلف نفس الصوت من مكان إلى مكان من منطقة إلى أخرى يقول عن صوت الجيم لفظه شبيه فى القاهرة بصوت g الفرنسى (فى gamin) ويلفظون هذا الصوت زاء فى بعض القرى فيقولون إنجاز الراموسة بدل إبراز الخاموسة ويتحول صوت الجيم إلى التين أحيانا . ونش من وحه ، يلفظ أهالى القاهرة وصواحبها القاف همزة . ويسمع أحيانا العين ما أعدرش . ويشير إلى لفظ الصاد طاء وبالعكس ظابط . راحل مظبوط صهر ، وإلى انتشار التشديد فى بعض مقاطع المفردات . حدّ ، هوّ ، هيّ . همّ . ميّه تربيّة .

وفى الفصول النحوية يتحدث صاحب الكتاب عن زوال الإعراب فى العامية واستعمال التنوين فى بعض الحالات النادرة متلا فى عده أمثال شعبية (خيرٍ تعمل شرٍ تلقى ، عبدٍ ما هو لك حرٍ مثلك) أو مجموعة الظروف الواردة من الفصحى (دائماً ، أبداً) وعن بقاء نون المثنى وجمع فى الإضافة عينين امت (ولكن عيونك) تعالين الملد خدامينك . وعن بقاء الصيغة لخامدة الأسماء الخمسة فوك . أخوك . حماك فمك (بدل فوك) وعدم استعمال ذو فى العامية

ويفسر الشيخ المنصاوى فى كتابه مزايا كثيرة لتصريف الفعل العامى وأوزانه الثلاثية والرباعية والخماسية (كسّر عضّل . فتّش اتكلّم . استحسن) واستعمال صيغة الجمع مع الاسم المثنى وبعائلات (الوالدين فهموا المسوال رقصوا) وحوص تصريف أفعال العلة وأشكالها فى العامية (يوعد . يوضع ويقع يسع حا الخ) زوال صيغة المجهول فى العامية وانتشار الأوزان المعلية الأخرى للتعبير عنه (اتاكل . انضرب)

ويحوى مؤلف الطنطاوى معلومات وافرة عن المفردات العامية التى تغير شكلها (الراجل — للرحل . اللى — للذى . تلتميه لثلاثمئة) . تغير معانيها (شاف أى رأى — من شاف أى صقل ، ولد أى صبى — من ولد أى طفل) . البحت (للسّا — للساعة) وأورد العالم عددا لا يستهان به فى المفردات الأحنبيه — التركية والفارسية واللغات الأوربية التى شاعت فى عهده . كُهنة خردة مورستان . عمارم . قشله . شلك . بقشيش استنباليه ، وبور . سارى عسكر (أى قائد الجيش) ، أميرحور أغا ، باشا الخ ولغت

الانتباه إلى استعمال لواحق النسبة التركية— حى (عربجى ، طوبجى ، خرده حى) و — لى (شرباتلى) ولواحق النسبه الفارسية دار (سلحدار ، خزندار ، حكمدار) .

ويدل العرض الموجز لبعض المعلومات من كتاب الطنطاوى على أن العالم ركز اهتمامه على القواعد الهامة للعامية وأعطى إشارات مفيدة لازمة لتعليم العامية بشكل واف كما أتاح فرصة سانحة لمعاصريه العلماء فى العرب والشرق لتعميم الاستنتاجات العلمية الواسعة عن تكوين اللغة المصرية العاميه المعاصرة لهم

ولكن اليوم لكتاب الطنطاوى أهمية أكثر مما كان عليه سابقا إذ أصبح مصدرا تاريخيا مأمونا للدراسات المقارنة التاريخيه يشمل مواد ومعلومات عن تطور اللغة العامية خلال مئة وخمسين سنه . ونرى أن التغييرات الملموسة حدثت فى الألفاظ والأصوات وقواعد النحو . والمعروف أن العناصر اللغوية المتشابهة وجدت فى الماضى بين اللغه العاميه المصرية واللهجات السوريه الفلسطينية كما يسمونها فى علم اللهجات . ونجد فى أثر الطنطاوى دلائل عديدة على أن هذا التشابه كان ظاهرا فى عهده ، إذ يشير إلى إمالة الفتحة ولفظها كسرة بعد حروف : ش س ، ف ، د ، ت ، ب ، ى ، و ، ن م ، ل : حبِّه ، حته ، خمسة ، قهوة ، وتستعمل كلمة « بد » للتعبير عن الإراده والرغبة : إن كان بدك تجى تعال (بمعنى إن كنت عاور تيجى تعال) ، انتشرت فى تلك الفترة « الاختياريه » (أى العجاير الشيوخ) ، إيش (بمعنى : إيه) ، من شان (بدلا من : على شان ، عشان) ، كانت ظروف الاستفهام تسبق الكلمة : فين تروح (اليوم . رايح فين) ، من أين تجى (اليوم يقال : جاى منين وكان أهالى مصر يستعملون كلمتى : شويه وبعصش (بمعنى قليلا) ، البارح وامبارح (بمعنى أمس) زالت اليوم من الوجود مفردات كثيرة للعهد العثمانى مثل إلجى (أى السفير) ، العرضحال (أى الطلب) وغيرهما ولا شك أن كتاب الشيخ الطنطاوى سوف يخدم خدمة نبيلة لعلم اللغه . وكل ما ذكرناه أعلاه عن قيمة القواعد اللغوية يخص كذلك قسم الأمثال وغيره من الفصول الفولكلورية فى الكتاب وتتضاعف أهمية هذه النماذج لدراسة الأدب الشعبى وتاريخه نجد بين الأمثال وحدات عديدة منتشرة فى الوقت الحاضر :

اعمل الطيب وارميه البحر .

الحيطه لها ودان ، الشرط نور

العروسة للعريس والجرى للمتاعيس .

المركب اللى لها ريسين تغرق ، ساعة لقلبك وساعة لربك الخ .

وقد يعثر عالم الفولكلور فى الكتاب على الصيغ القديمة المثلية المستعملة اليوم بشكل آخر .

الدرهم الأبيض ينفع للنهار الاسود .
(القرش الابيض) .

الطمع يضيع ما جمع (يقل ما جمع) .

الغايب حجته معه (اليوم : معاه) .

بنت الوزة عوامة (ابن الور عوام) .

اللى له صهر ما توحعوش بطه
(ماينضربش على بطه)

والقسم الثالث من الأمثال الواردة فى كتاب الطنطاوى لا يعرفها شبابنا اليوم :
الألف تجر الماء

الحساب بالدانق والمحبة بالقطار .

النار ولا العار :

إيه حاب طوخ فى مليح :

يفتى على الإبرة ويبلع المدره الخ :

وللشيخ الطنطاوى مخطوطات أخرى فى لينينغراد عن المولكلور المصرى ومخطوطة كتابه فى النحو العربى للغة الفصحى . ويبدو من كل ذلك أن مؤلفات الشيخ الطنطاوى تنتظر باحثيها من مصر والاتحاد السوفييتى البلدين الصديقين اللذين كان الشيخ محمد عياد الطنطاوى همزة وصل لثقافتهما .

جريجورى شرباتوف
عضو المجمع المراسل من الاتحاد السوفيتى